فتداركاً للاخلال بكثافة اللحظة التي يرصدها الكاتب والاخلال باللغة الشاعرية التي تميزها، فانه يلجأ إلى تسجيل التاريخ الشخصي لابطاله بعيداً عن السياق، في الهوامش التي تقوم بهذه المهمة، وبلغة تتميز غالباً بالتقريرية.

هكذا نتعرف على شخصيات الرواية بعمق تاريخها الشخصي، «ابو القاسم» و«قاسم» و«طلال» و«سعاد» و «زياد» والجندي الاسرائيلي «ابراهام». ولا يشكل تاريخ الشخصية مجرد تاريخ فردي يعمق معرفتنا بالشخصية فحسب، بل بالتاريخ العام، الفلسطيني خاصة، في مراحل معينة. وهنا لا يسقط الكاتب وعيه على ابطاله في داخل السياق، وانما يقدمه كوعي مستقل، اذا افترضنا أن للهوامش استقلاليتها النسبية، من حيث كونها تتحدث بوعي الكاتب نفسه وهو يحكي عن أبطاله من مسافة تبتعد عن لحظة الحدث وزمانه وسياقه. وان انقذ هذا الشكل الحدث الأساسي من الوقوع في المباشرة والاسقاط السياسي، فان الهوامش لم تنقذ الرواية من ذلك، فشكلت تحايلاً فنياً يخدم السياسة «.. وساقتها هذه الدراسة إلى القاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك أنها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة إلى قانون صارم للعلاقات الداخلية، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة إلى مرتبة السلطة، وقد كان لسعاد آراء غامضة، ولكنها بالغة التأثير، بالتغير الذي يطرأ على الأحزاب السياسية عموماً، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصاً، حين تهيمن على دفة السلطة..» (هامش ص ٥٨٦)

لكن لغة الهوامش تبتعد عن التقريرية السردية والسياسية، إذ تقوم بمهمات فنية أكثر عفوية، كالاستدراك.. «في الواقع انه يشعر الآن انه أكبر سناً مما هو حقاً..» (هامش ص٥٨٥). أو اضافة تفصيل صغير لسياق الحدث الأساسي.. «دخلت البيت، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له: البرقوق ورد الفقراء يا أبا القاسم..» (هامش ص ٥٨٩)

هذه الهوامش، التأريخية والاستدراكية والتفصيلية، هي التي تمنح العمل بعده الروائي، ودونها يظل هذا العمل قصة قصيرة، جميلة.. وشاعرية.

■ ■ ■

الرمز.. في المبنى والتفاصيل

في بحثه عن المبنى الرمزي في أعمال غسان كنفاني الروائية، توقف الدكتور احسان عباس عند رواية «رجال في الشمس» في محاولة لقراءة جديدة تتلمس البعد الرمزي فيها، فانتهى من قراءته إلى التأكيد على أن «سطوع الواقع في قصة غسان هذه، وجبروت ذلك الواقع كما كان مستمراً في حياة الفلسطينين جميعاً، كان يضائل من قيمة الرمز، وان